من هنا وهناك

الكنانة فى الأدب الحضرمى

أوشكت الأيام أن تتلاحق بثقل عبئها على كاهل السيد ابن شهاب كضريبة يجب أن يؤديها للزعامة الاصلاحية التى نهض بالدعوة إليها فى أواخر القرن الثالث عشر الهجرى .

ومناهضة المصلحين أمر طبيعى ما تنى التاريخ يحدثنا بذلك طيلة العصور الماضية . ولم تقف هذه المناهضة يوما ما فى سبيل مجرى حرارة الدعوة الاصلاحية ما دام أنها صادرة عن عقيدة متأصلة فى النفس وإيمان بسمو المبدأ والغاية . وبمقدار احتمال الأذى فى حدود الطاقة الانسانية تركز الزعامة تثبيتها فى التاريخ فيتحدث عنها حديث من يستحق الخلود . وهكذا كان شأن التاريخ الحضرمى ليكتب صفحة الخلود عن ابن شهاب .

ومهما قيل من اعتذار فى حق المناوئين من ضعف فى الفكر ، أو ثقل على النفوس لانتهاج منهج لا يتمشى مع ما ورثوه من تقاليد وعادات وميول ومشارب ، وإن تكن فى حد ذاتها بعيدة عن سماحة الشريعة الاسلامية بمقدار اقترابها من الجبت والطاغوت ، أو كانت مناوءتهم للاصلاح ناشئة عن حسد متأصل فى النفوس حيث أتيح للسيد ابن شهاب ما لم يتح لأحد منهم من سمو الفكرة التى كان يدعو إليها بحرارة الوجدان الصادق وقوة اليقين مع معرفة بانتهاج السبل الداعمة للاصلاح القومى وتشييد بنيانه .

ليكن هذا أو ذاك فان المناهضة للاصلاح القومى هى التى طوحت بابن شهاب للهجرة عن حضرموت فى سنة ١٣٠٢ هـ. وهو فى عهد اقتراب من الكهولة ونضوج تفكيرها . ولا غرو فقد ساءت العلاقات الوديه ما بينه وبين مناوئيه ، وهم من ذوى الحل والابرام والنقض ، وأصبحت الاقامة فى الوطن العزيز غير مستساغة ولا محتملة . فقد كادت الأحوال تتطور إلى ما لا يرتضيه ذوو الشهامة والنخوة ، ولا يجدر بمثله أن يلوذ بالصبر والاحتمال إلا إذا فرضنا عليه احتمال نير العبودية والذل والخنوع مما لا يتفق مع سمو مكانته وسمو مبادئه

وهى فى غاية من الكمال والرفعة . قال :

يأبى الأبى الذل لو عين الحيا
ة بدارها لم يلف من روادها

إذاً فلم يبق أمامه غير سبيل إلى اقتحام الهجرة . ولا نخال قوله :

لكن بلوغ المرء أقصى غاية
فى العز مقصور على إبعادها

أو :

تلك السبيل إلى الفخار فان ترد
إدراكه فدع الربوع وعادها

ألا تعلة نفس شديدة الاهتمام بالوطن العزيز متفانية فى محبته أشد التفانى ، ولكنها فى يقظة الثورة الفكرية والنفسية [1] :

رحمك الله ابن شهاب ! لقد عهدناك من سراوة الخلق بمكان عظيم وما زلت كذلك رغم قولك :

. . . . . .
فدع الربوع وعادها

وإن تناءيت بهذا القول عن مكانة الزعامة التى تسمو بالسماحة ويسعة الصدر إلى ثورة النفس الجامحة التى لا تفكر فى العواقب بمقدار ما تجيش به مما يخفف لوعتها المتأججة ، ولعل لها فى ذلك بعض التعلة .

و إذا تجردنا من العاطفة التاريخيه السياسية رغم النكبة التى حلت بالوطن من جراء مناوءة المصلحين المتناهية للسيد ابن شهاب وغيره فيما بعد فان هذه النكبة من الناحية الأدبية كانت سبب فتح عظيم لتجلى عبقرية ابن شهاب الشعرية ، واستفاضة أدبه فى اتساع أفق عظيم لم نعهده فى أدبه من قبل .

فقد جاشت نفسه بالشعر فى أفق أسمى وخصوبة فياضة ، وما كاد يغادر حضرموت حتى ودعها بقصيدة غراء مطلعها [2] :

ودع سعاد وألق حبل قيادها
واصدر على ظمأ لدى ميرادها
واربأ بنفسك أن تغازلها وإن
منحتك حبا من صميم فؤادها
أنهاك لا لقلى ولا لسآمه
أو تسأم الحسناء فى أبرادها
لكن بلوغ المرء أقصى غاية
فى العز مقصور على إبعادها

وقبل أن تنأى به الأيام بعداً

---

(١) أنظر من كتابنا «الشهاب العلوى» أثر الهجرة فى نفس ابن شهاب

(٢) أنظر ديوانه صفحة ١٣٠

عن الوطن فاضت قريحته بقصيدة أخرى أجاب بها على رساله بعثبها إليه ابن عمه السيد محمد بن عيدروس بن شهاب من تريم ، وهو إذ ذاك فى المكدّ[1] نجتزئ منها بهذه الأبيات. قال :

ولكن نفتنى عن حماها يد النوى
لأرض بها مثلى يطول اغتمامه
إذا ما سرت عن ذلك الحى نسمة
يهيج بقلبى وجده وغرامه
ولم يرق بعد البين عن بانة النقا
جعلت فداها مدمعى وانسجامه
فيا نفس صبراً هكذا يصنع الهوى
بمن كان فى أيدى الحسان زمامه
ولا تقنطى مهما تمادى بك الجفا
فجور الهوى حال محال دوامه
وها أنا قد آنست من جانب الحمى
وميض بروق لايزال ابتسامه
رموزاً بذكر العامرية من أخ
أديب صفا عما يشين رغامه
أعز دوى القربى علىّ قرابة
وخير أخ يرعى لدىّ ذمامه

فان ما فى هذه الأبيات من معان لا تتفق مع الروح الوثابة التى تتجلى فى قوله من القصيدة الأولى :

أنى تنال لغير أروع ماجد
متبدل عن غيها برشادها
ماضى العزيمة غير هياب صبو
ر النفس بيات على مرصادها
يسدى ويلحم فى مناسج فكره
أبرادها ويجيد قدح زنادها
تلك السبيل إلى الفخار فان ترد
إدراكه فدع الربوع وعادها
وارحل فان العجز شر مصاحب
عجلا وطأ فى السير شوك قتادها
واخطب عذارى المجد فى آفاقها
واشهد مواسمها على ميعادها
وجب المشارق والمغارب واسع فى
أغوارها واركب صهاها أنجادها
فنفائس الياقوت تؤخذ من معا
دنها وتشرى من يدى نقادها

هذه الروح الوثابة التى صور فيها ابن شهاب روح الأروع الماجد ، الذى يجيد قدح زناد الفكر وهو غير هياب ولا وجل شأن ذوى الصرامة والشجاعة الباسلة على حد قول الشاعر :

إذا همّ ألقى بين عينيه عزمه
ونكّب عن ذكر العواقب جانبا
ولم يستشر فى رأيه غير نفسه
ولم يرض إلا قائم السيف صاحبا

---

(١) المكد : أشهر موانى حضرموت اليوم .

لا تتفق مع هذه الأبيات التى تصور خمود النفس، والضعف الشديد فى ظاهر الأمر، ولكنها فى حقيقة التمثيل الروحى من صميم روح ابن شهاب الوادعة. فقد كانت روحه الطاهرة بمكان عظيم من الوداعة والطيبة ولكن فى يقظة، ومن سعة الصدر وأريحية القلب فى غير مذلة ولا لؤم.

هكذا كانت نفسية ابن شهاب جياشة بالشعر فى كل مرحلة تطؤها قدماه، وبلغت منه الخصوبة مبلغاً عظيما حينما استضاء بنور الكنانة فتغنى بالشعر غناء يفيدنا من الناحية التاريخية الأدبية بمقدار ما يضئ لنا السبيل فى أثر الهجرة فى نفس ابن شهاب.

كيف كانه الادب فى مصر؟

وما دمنا بصدد استجلاء أدب ابن شهاب حين زيارته لمصر سنة ١٣٠٣ هـ، فلا مناص إذاً من القول:

إن الأدب فى مصر فى أوائل القرن الرابع عشر الهجرى لم يكن يتبوأ المكانة التى تتدفق بها ينابيعه الآن وإنما كان فى عهد طلائع النهضة الأدبية، وما زالت عقابيل الماضى تحد من نشاطه؛ إذ ليس من السهل الاجتياز بمؤثرات القرون الوسطى الأدبية من غير أن يصاب الأدب ولو برذاذ منها يحد من نشاطه دون المضى به إلى الارتواء من المنبع الأعلى الذى ازدهرت به الحضارة الاسلامية فى عصورها الأولى.

وهذا شئ واضح لا يكلفنا سوى ارتياد أدب أعلام النهضة المصرية. وكان من أعلامها يومئذ عبد الله فكرى المتوفى سنة ١٨٨٩ م، وعبد الله نديم المتوفى سنة ١٨٩٦ م، وعلى الليثى المتوفى سنة ١٨٩٦م، ومحمد عثمان جلال المتوفى سنة ١٨٩٨م. والبارودى المتوفى سنة ١٩٠٤ م.

ولا نخال ان ابن شهاب وهو من المكانة العلمية العظيمة بله الشاعرية إلا توثقت به المعرفة بهؤلاء الأعلام الكبار وغيرهم معرفة الاتصال المباشر أو على الأقل استعراض أدبهم، رغم أن مقدمة ديوانه لم تشر إلا إلى زيارته لمصر سنة ١٣٠٣ هـ فقط وقد كنا نود أن نفهم كيف كان مقامه بمصر.

فمن غير المعقول أن يتسنى له الاتصال بالخديوى توفيق باشا من غير أن يتهيأ له الاندماج والاتصال بصفوة الطبقة الممتازة من رجال عصره فى حين يقول:

فسنام أى الأرض أذهب منزلى
ولى الندامى الغر من أمجادها

وليس هـذا القـول بكثير على ابن شهاب ؛ فمقامه العلمى يخول له ذلك ، وما الأدب إلا إحدى السمات التى يتصف بها . وتاريخ حياته شاهد بذلك ، وفى مضامين كتاب « الشهاب العلوى » ما يجلو الحقيقة ويقيم البرهان على صدق قوله .

ونعود إلى النشاط الأدبى بمصر . فلئن أخذت النهضة الأدبية تنزع بالحياة الشعرية نحو التجديد ، واستضاء الأدب بقوة الأسر والجاذبية وحسن الصياغة والفحولة كما نراه فى شعر البارودى وغيره ، فان هذه النزعة لم تتخل عن آثار الماضى القريب أو البعيد أصلا . وقد بقيت لها منه بعض الوشائج التى تمتّ إليها بصلة وثيقة أو غير وثيقة .

بل لم تزل الكثرة من مواضيع الشعر كما كانت من قبل إلا عند بعض ذوى الشاعرية الكبيرة فقد تأثرت نوعاً ما بحيلة العصر .

أما النسيب ما زال يحتل المكانة العالية لدى الشعراء كأنه الجسر الذى يوطد الصلات بالمديح . وهيهات أن ينكر ما للنسيب من مكانة فى الشعر . وإنما النسيب الذى تلتهب به العواطف وتجيش به النفوس بعد أن تحفزها دواعيه الخاصة .

وفوق هذا فقد كان الأدب أرستقراطى النزعة أو على الأقل فان أدب ابن شهاب من هذا القبيل .

فان هواء مصر نفحه بسبع عشرة قصيدة ، منها ستة عشرة قصيدة قالها مدحاً فى الخديوى توفيق باشا . وقال القصيدة السابعة عشرة مرثية فى زوجته المتوفاة بحضرموت وقد بلغه نعيها وهو بمصر .

ولعل فى المضى إلى استعراض أدبه وهو بمصر ما يضئ لنا السبيل إلى التعرف عليه ، رغم أننا لا نعرف شيئاً عن الأسباب التى جعلته يحجم عن تقديم قصائده للخديوى توفيق كما نص على ذلك ديوانه . وما نخال إلا أنه وقد عارض بها الأرتقيات كان يؤمل أن تتاح له الفرصة فيكملها ٢٨ قصيدة حسب الحروف الهجائية ، ثم يقدمها دفعة واحدة ، وبهذا تظهر قوة معجزته الشعرية لأنه فى وسط شاعر عظيم :

ماذا فى معارضة الارتقيات من صفاتها الشاعرية ؟

ناهيك بأدب يسمو به قائله لاقتعاد الذروة العليا بين أعلام الأدب والشعر أن يكون حرا طليقاً من كل قيد أورثته لنا عصور التاريخ القريبة أو البعيدة ما عدا ما لا يستقيم

الأدب بدون التمسك به من حسن الصياغة وقوة الأسر والديباجة الغربيه المتينة ، إلى ما يتصل بذلك من المعانى التى تجيش بها النفس بعد اكتمال اختمارها كما هو شأن كثير من الشعراء المبرزين .

ولئن تم لابن شهاب فى معارضة الأرتقيات حسن الصياغة والديباجة العربية كما أسلست له الشاعرية قيادها حيناً وأفاضت عليه بعض معانيها العظيمة ووافاه القريض بما يعد من آيات الوصف ، فان لالتزامه طريقة العسف الشائعة فى عصره ما حد من شاعريته كثيراً .

ولو تغنى بالشعر كما تقتضيه الطبيعة والسجية كما تغنى به فى قصيدتيه (١) :

لذى سلم والبان لولاك لم أهوى
ولاازددت من سلع وجيرانه شجوى

والتى يقول فيها :

يصبحهم من صحبه بفوارس
يرون مذاق الموت إن جالدوا حلوى
يخوضون لج الهول علماً بأن من
نجا من حتوف الحرب تقتله الأدوا

أو (٢) :

دعتك ـ لك البشرى ـ إلى عرشها أسما
. . . . . .

وكلا القصيدتين من يقظة الشاعرية بعد الهجرة من حضرموت ، لكان لنا من أدبه منبع لا يغيض ، ولوافته المعانى الفياضة مما لا دعته إليه الضرورة القاهرة .

وعلى كل فان وظيفتنا دراسة أدبه لا التحكم عليه فى الاختيار . قال :

جد بالمعتقة التى لم تمزج
واجل الدجى بشعاعها المتأجج
جنى بها صهباء صب عصيرها
فى الكوب آدم قبل يوم المخرج
جرت الارادة أنها من ذلك
عهد القديم تصان عن متزوج
حريالاً احترقت بجدة طبعها
فكأنها لم تغل أو لم تنضج
جاء الأوان فقم لفض ختامها
واشف النفوس بنفحها المتأرج
جدد بها الأفراح إن سميرنا
لتناول الأقداح ذات الهودج
جام يدور ومزهر نسلو به
وزهور ورد غضة وبنفسج

---

(١) ديوانه صفحة ١٨
(٢) ديوانه صفحة ٦٥ وسنعرض لدراستهما فى موضع آخر .

جمعت لدينا اللذتان بمجلس
صهباء صافية وربة دملج
جن الدجى فجلا ضياء جبينها
وسنا الطلى جنح الظلام المدلج
جمعت إليها النفس لما عاينت
منها مشوب فكاهة بتغنج
جنحت إلىّ وكأسها فى كفها
ورنت مسلمة بطرف أدعج
جاذبتها ملح الهوى وبثثتها
شكوى الغرام وحره المتوهج
جزعت لما علمت به من حالتى
وتأوهت لنحول جسم مزعج
جذبت لتجبر صدع قلبى نفسها
بحوى فبت بطول ليلتها شجى
جادت بما أهوى وجاد الدهر من
لقيا العزيز بما أروم وأرتجى
جم المفاخر صاحب السيف المهـ
ـند واليراع وخير كل متوج
جلت مكارم نجل اسماعيل عن
تشبيه خالص تبرها بالبهرج
جالى قتام المعضلات إذا دهت
بثواقب الرأى السديد الأبلج
جز حول ساحته الفسيحة تغن عن
كل الملوك وباب رأفته لج
جود الملوك بمقتضى شهواتهم
ولجوده الباب الذى لم يرتج
جهراً يقال لمن يحاول منهم
علياه هذا غير عشك فادرج
جاءت به الأيام فردا كاملا
وبمثله أم العلا لم تنتج
جاز السماك ترقيا وعلى سرى
فلك اقتناء المجد غير معرج
جرّت به مصر ذيول فخارها
وغدت مدائنها ملاذ الملنجى
جور النوائب آيس ممن غدا
فى سوحها المأنوس يدهب أو يجى
جلبابه زرد الحديد لدى الوغى
والمستقر صها بنات الأعوج[1]
جمعت لنصرته الجيوش فهم له
كالأوس فى غزواته والخزرج
جولان خيلهم يذكرنا إذا
زفرت لظى حرب فوارس مذحج
حزمت عواملهم رقاب عدوهم
حتى ينيب إلى قويم المنهج

على عبود العلارى

---

(١) فى هامش الديوان ما نصه :
الزرد : الدرع . والصها بضم أوله جمع صهوة : مقعد الراكب . وبنات الأعوج : خيل من نسل الأعوج فرس مشهور .

البـــحيرة

من سار فى الأرض مهلا تحدثت إليه الأرض بشئ من أسرارها . ومن مشى فى الأرض قويا فتيا جاوبتـــه منازل فى الأرض بأجمل ما يرى وما يسمع ، ويشهد فى يقظة الصحو ما تأتى به الأحلام من صور عابرة خاطفة ، وأخرى تمر به متمهلة كمر السحاب ، وهى تلازمه وتتجرد عنا كلما تجاوزها من سفر إلى سفر . وفى حياة الانسان خاصة أن تمر به الحياة فلا تأتى بجديد ، وإن سار فى الأرض جاءته كل لفتة بجديد . وفى بعض ما يشهد صور لم يترقبها فتأتى بما لم تسر إليـــه أحلامه من صور الحياة .

وهو يتزود بظلال فى الضحى ونسيم فى الآصال ، وسلام فى العشى ، وهو يمضى « أخاً سفر جواب أرض ، تقاذفت به فلوات»، وتتلطف آثار حياته فيفنى فى بعض الأرض بلفتة مطرقة إلى نبع أو نور ، ويصغى لأبعد ما يرسل فى الليل نبح كلابها ، ويتزود « من شميم عرار نجد ، فما بعد العشية من عرار » . وتتلطف آثار حياته حين تقلع به ســفينة من الأرض التى يحب فيملأ عينيه بآخر ما يبصر من لونها قبل أن تتوارى فى حجاب الفضاء ، ويصغى إلى ما يتجاوب بينه وبينها من فكرة ، وتتلطف آثار حياته فتتجرد من كل غشاوة وترتد إلى نبعها الأصيل الذى نبعت منه آمالها وعزماتها ، ويهز قلبه طرب حين تنفذ آثار الطرب إلى أصول حياته ، ويمضى فلا يكون إلا فكرة ، والفكرة أشد نفاذاً من النسيم وأبعد بصيرة من كل شئ .

ولا يبلغ شئ جمال الفكرة التى تلقاك حيث تكون بآثار الذين زودوا حياتك بالحياة وبالخير . . . فى جانب من بأطن الوادى قرية مصرية تحمل منها الفكرة كلما جاء ضياء النهار . وحيـاة الآمنين من شيوخهـا وهم يغدون إلى الصلاة بما بقى فى نفوسهم من قوة ، ومنهم من آمن بالخير إيماناً مطلقاً حتى يستطيع أن يعطى يمينه ما تجهله شماله ، وأن يعيش بينه وبين الله بارا تقيا ، ويعيش بينـــه وبين الناس « أباً لمن لا أب له وأما لمن لا أم له » . ويفشى السلام بين الناس.

ويعيش هذا الشيخ فى طيات الفكرة ثم يمضى فلا يكون إلا ظلا ، وتأتى الفكرة بالظل حين لا يكون إلا أثراً نبيلا عزيزاً من آثار الانسانية

التى رعت نباتنا صغيراً ووقته بنفسها أن تأتى عليه عادية من العوادى .

وتسمع الفكرة تحية الرائحات والغاديات من النساء وكثير منهن قد أمسى ظلالا فى طى الفكرة ، وكثير منهن يستطيع أن يلقى الله بمثل ما لقيته المصرية الأولى « رب إنى لم أبرح سبيلك منذ ولدت إلى أن عرضت عليك ؛ فقد عشت بارة بوالدى وفية لرجلى ، محبوبة من الناس أجمعين ، لم أعط عن رياء وإنما كسوت العارى وأطعمت الجائع فى عام الجدب وواسيت الناس جميعاً بقلبى » .

وتأتى الفكرة بأقران يغدون وراء دوابهم إلى زروعهم ، ويروح آحادهم وفى أيمانهم نبات تتبعه صغار أنعامهم ، وإن منع عن هذه القرية ويل ، فليس يشغلها إلا صلاة وزرع . . .

ثم يصح نهار وتطيب نفس ويقبل صحو بحياة وقوة ، فتتبع الفكرة آثار الأحلام التى تزين آفاق حياتنا حتى تكون لزوماً وتنشر هذه الآفاق ثم تزول ، ولا تكون الصحراء فاتنة حتى تشرف من آفاق الرمال على ماء . وما بال الناس إذا التقوا فى ركب ، سأل كل صاحبه عن محط رحاله ، فكأنما يريدون أن يشهدوا آفاق الأحلام التى شدوا إليها رحالهم . . .

هنالك أفق من وراء ليل ونهار يجمع ما يجمع ثم نسرى إليه .

وكذلك ثبتت الفكرة السعيدة من آثار الانسانية العزيزة النبيلة وتشرف فى آفاق أحلامها على ما تشتهى من آثار الانسانية النبيلة العزيزة وكأنها لا ترى غاية للخير أجمل من أن ترد لنفوس محبوبة أجمل آثار حياتها . وما نشهد فى الأرض من آيات الجمال أبعد أثراً فى إظهار نفوسنا من المرآة التى لا تكشف إلا ظاهراً ، وتبصر فى جانب البحيرة عالماً من الذكر والأحلام لا تكشفه المرآة وهو أشد أثراً فى حياتنا من أى شئ ، وهو أعز أثراً على حياتنا من أى شئ .

وأجمل آثار الجبال أن يستتير ما سكن من جمال الذكر ويرسل ما عز من جمال الأحلام . وترى الشمس إذا غربت رقت سطوتها عن مروج الجبل ، وانبعث من رقتها نسيم عليل ينطلق فى كل شئ انطلاق الطفل الذى ينهض فرحاً ثم يتعثر فى ثوبه .

وتتماوج فى الأبصار طبقات ممتزجة من خضرة المرعى ورياض الغمام ، وتتمهل الشمس عند أقصى قمة لبلغ كل قصى مأمنه ، ويجد فى حياة النسيم ما يجد الفتى القرى الذى يثب سعيداً

إلى حياة الدين سعدوا به وبحياته ، وحينئذ تقبل الفكرة بآثار عزيزة من من آثار الانسانية وكأنما تتهافت عليك وتحف بك وتنهض بنهوضك وتصحبك سعيدة حتى تبلغ مأمنك . وتسارع إليك هذه الآثار لتعصمك من زلل وترعاك من أذى ، وتبدل حرجك فتجعله يسيراً ، وتعز وحدتك فتجعلك كثيراً ، وهى التى تترقب ثمار آمالك وجمال حياتك وما تشتهى أعماق نفسك من رجاء . . . وحيثما أقامت هذه الآثار ارتد كل شئ سعيداً ، وسمت إنسانيتها حتى صغر بجانبها كل جمال فى الأرض ، وصخور إيتاك — كما يقول شاتو بريان — كانت أعز على تليماك من كل جنة فى الأرض .

وتمضى وحيدا فى وهاد يتدفق فى أعماقها نهر وتتلوى سبلها وتتقارب جوانبها العاتية . . . ويخترق ظلها الكثيف ما تيسر من بياض الشمس . . . حتى تكون وسط النهار فى أعلى الوادى ، فتتسع رحابه وتمتلئ أحضانه بدافق حياة الشمس ، فيلقى ضياء الشمس الناعم الرحيم مروج خضر لينة ، يسارع فيها نهر كالقناة بماء قد تلون بخضرة الجبال وزرقة السماء فتراه حيا مزهراً . . . ويميل إليك الغاديات والرائحات بمرح الحياة والشباب ، ويسرى فى كل نسمة نعيم ورضا فتتلفت من بين يديك ثم ترتد فتتلفت من ورائك لتمسك عليك ما أدركت من جمال ، ثم تبلغ بنشوة الحياة ثلاث بحيرات عند قرية سانت موريتز قد تغنى بها نيتشه حتى سميت إحداها باسمه . ويكسو صحاف هذه البحيرات الوادعة الخضر سلام عميق وحياة . فان نشرت قلاع فوقها أيقنت أنها جمعت قلبين حبيبين أقبلا من أقصى الأرض ؛ لأن للحب معابد حيث تجلو الطبيعة جمال الحياة وحينئذ لا تكون الحياة زماناً وكفى ، وحينئذ تنهض الفكرة فلا تكون إلا حلماً جميلا عزيزاً من أحلام الحياة .

وبحيرة لوكارنو ذات جمال وجلال ، وهى تمتد بين سويسرا وإيطاليا بسلام وأمن . . . وكأن الطبيعة والانسان قد صارا شريكين فى آثار الحياة ، كلاهما ذو قلب جميل وتسرى فيهما نسمات من الانسانية والفن ، فلا يعجلان لشئ ولا يفزعهما الزمان فى شئ ، ولا يشرق القمر من راس الجبل حتى يسبقه رسل من ضياء تبدد ما تستطيع من ظلام الليل ، وتسمع فى سكون الليل من طرف البحيرة كلاباً تنبح نبحاً غير مضطرب فيتماوج

نبحها فى فضاء البحيرة ثم يتلاشى ، ويقبل على جفنيك نوم ناعم فتسمع بين النوم واليقظة فتى خرج بقاربه فى ضياء القمر ليجاوب الطبيعة بغناء يطرب له كل سمع .

وأجمل من كل ما أبدعت الطبيعة من جمال أن ترى حول هذه البحيرات والجبال أمة من الناس قد حققت صورا رائعة من صور العدل .

وقد يبلغ جمال العدل إشراق النهار وميل الأصيل كما يقول أرسطو ، فلا ترى فيهم سائلا ولا محروماً ولا أميا ولا مريضاً يجرر تعاسته فى الطريق العام . وهم أول أمة سنت قانوناً لحماية اليتيم ورعاية الكهول ، ولا تخاف بينهم من سارق أو معتد ، ولا تستشعر احتقاراً ولا علوا ، ويسرت للانسان عزته وكرامته ، فحيثما تجد سائلا أو محروماً فاعلم أن من وراء ما ترى سارقين ومجرمين . وليس ينهض العدل نصيراً وظهيراً للضعفاء وحدهم ولكنه يحمى الأقوياء بأعز ما يحمى به الضعفاء . فالانسانية جزء متماسك متكامل يشد بعضه بعضاً . ومن يجهر بسعادته بين الاستياء ويقوته بين المرضى فقد تجرد من كل شعور بالمروءة والانسانية . ومن أصدق حديثاً عن العدالة من سولون مشرع أثينا : « إن مدينتنا لن تبيد بقضاء من قضاء الله ولا بحكم من أحكام الآلهة السعيدة الخالدة ؛ فان الله حرسها « بيلاس أثينيه » التى تبسط من فوقها يديها من كبد السماء . . . وهى إلاهة من أب ذى بأس ، ولها قلب كبير عال . . . وإنما يريد أن يهلك المدينة المجيدة أبناؤها أنفسهم حين يذهب رشدهم ويستمعون لغواية المال . . . ويريد أن يذهب بها أيضاً قادتها حين يستهويهم البغى . فلا يلفون من طغيانهم وشططهم سوى عذاب أليم . . . فلا هم يعلمون أن يدفعوا عن أنفسهم غائلة الكبرياء ، ولا هم يجعلون سعادتهم فى سلام ما قسم لهم ، وهم يمسون أولى مال بما يسارعون إليه من آثام وظلم . ولا يعفون عن مال المعابد ولا يتنزهون عن مال الدولة . وهم يستبقون أيهم أكبر نهباً وسلباً . ولا هم ينظرون إلى عرش العدالة السامى التى تمهل ساكنة وهى تطلع على ما كان وما هو كائن ثم تنزل ساعة لتضرب على أيدى الظالمين . فيمس المدينة جميعاً بعدها قرح لا نجاة منه ، فتقع تحت أقدام العبودية الظالمة ، وتوقظ فيها فتنة التحزب وتسعر فيها نار الحرب بين العشيرة والأهل

وتأكل الفتنة والحرب شاناً كثيراً في زهرة الحياة المحبوبة ، ويسارع أعداء هذه المدينة العزيزة فينهكون قوتها في مواقع غالية على الذين ظلموا .

وتدور هذه الشرور على أبناء الأمة فيفر من وجهها طوائف من الفقراء إلى بلاد غريبة ليسقطوا فيها في أكبال العار والخزي .

وهكذا يلج بلاء الوطن على كل امرئ في داره ، فتأتي حتى أبواب الدار الداخلة أن ترده ، ويثب إلى البروج الشاهقة ، ويدرك كل امرئ ولو هرب في أعماق حجرته .

« وذلك الذي دعتني نفسي أن أعلمه الآثينيين — كلما ساء العدل في المدينة حاءها بلاد كبر وشر . والعدل يزين كل شئ محمال ووئام ، ويغل الظالم بأغلال وأكبال ، ويذلل كل وعر ، ويمحو الجشع ويقضي على البغي ، ويوبس زهور الشطط النابتة ، ويقوم عوج الأحكام ويمحو آثار الكبرياء والتعالي ، ويذهب بريح الشقاق ، ويمزع أحقاد الخصام الأليم ، ويعيش في ظلاله كل امرئ في وئام ووفاء . »

علي حافظ